تفسير سورةُ المؤمنون

من آية (57) إلى آية (61)

اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (44) إلى آية (56):

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ رُسُلَه يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، إلى أُمَمٍ أُخرى بعدَ أولئك القَومِ المهلَكينَ، كلَّما أتى رَسولٌ أُمَّتَه كَذَّبوه ولم يَقْبَلوا ما جاء به مِن الحقِّ، فأتْبَعَ اللهُ بَعضَهم بَعضًا بالهَلاكِ وعَذابِ الاستِئصالِ، وجعَلَهم أخبارًا للناسِ يتحدَّثون بها عنهم. فبُعدًا مِن رحمةِ الله لقَومٍ لا يُؤمِنونَ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه أرسَل بعدَهم مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِه وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ واضِحةٍ إلى فِرعونَ وسادةِ قومِه وأشرافِهم، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ، وكانوا قَومًا مُتطاوِلينَ على النَّاسِ، قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالمينَ لهم، فقال فِرعونُ ومَلَؤُه: أنُصَدِّقُ فَردَينِ مِن البشرِ مِثْلنا، وقَومُهما مُطيعونَ مُتذَلِّلونَ لنا؟! فكَذَّبوهما فكانوا مِنَ المهلَكينَ غرقًا في البَحرِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه آتَى مُوسَى التَّوراةَ؛ لِيَهتَديَ بها قَومُه مِن بني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَل عيسَى ابنَ مَريَمَ وأُمَّه علامةً دالَّةً على قُدرَتِه سبحانه على خَلقِ ما يشاءُ؛ إذ خلَقَه مِن أمٍّ بغيرِ أبٍ، وجعَل لهما مأوًى في مكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه ماءٌ جارٍ ظاهِرٌ للعُيونِ.

يخاطِبُ اللهُ رسلَه آمرًا إيَّاهم بأن يأكُلوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وأن يعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ ويُذَكِّرُهم بأنَّه عَليمٌ بما يعمَلونَ، لا يَخْفَى عليه مِن أعمالِهم شَيءٌ. ويبيِّنُ لهم أنَّ دِينَهم جميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ، وأنه هو رَبُّهم؛ فعليهم أن يتَّقوه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الناسَ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ تفرَّقَتْ في الدِّينِ، وجعلوه كتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ، وجعَل له دينًا، كُلُّ حِزْبٍ مُعْجَبٌ برأيِه، يَعتقِدُ أنَّه على الحَقِّ دون غيره! وأمَرَ اللهُ نبيَّه أن يَترُكَهم في غَفلَتِهم وحَيرتِهم إلى أنْ يَنزِلَ العَذابُ بهم أو الموتُ.

ثم يقولُ تعالى: أيظُنُّ هؤلاء المفَرِّقونَ دِينَهم أنَّ ما يبسُطُه لهم جلَّ وعلا مِن أموالٍ وأولادٍ في الدُّنيا هو تعجيلٌ لثوابِهم لِكَرامتِهم عليه؟! كلَّا! إنَّما يفعل ذلك فِتنةً لهم واستِدراجًا، ولكِنَّهم لا يَشعُرونَ بذلك.

فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، عَنْ النَّبِيِّ –صَلى اللهُ عليهِ وسلم– قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ"، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلى اللهُ عليهِ وسلم–: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)[الأنعام: 44]، فالعطاءُ الدُّنيويُّ من اللهِ –سبحانَه– ليسَ دليلاً للمحبَّةِ، إلا إذا كانَ مع عبادةٍ وشُكرٍ كما قالَ –تعالى–: (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)[إبراهيم: 7].

هناكَ شيءٌ يُدعى "الأمنُ من مكرِ اللهِ –تعالى–"، وهو ببساطةٍ أن يكونَ العبدُ أو القومُ في نِعمِ اللهِ –تعالى– مُنغمسونَ، وهم على مَعصيتِه مُقيمونَ، فلا هم يُطيعونَ، ولا هُم يشكرونَ، وقد قالَ اللهُ –سبحانَه– في أمثالِ هؤلاءِ: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)[الأعراف: 97- 98]، فمثلُ هؤلاءِ يأتيهم البأسُ والعذابُ غفلةً، في حِينِ نومٍ أو لعبٍ.

فلا ينبغي لمن رضيَ باللهِ ربّاً وبالإسلامِ ديناً وبمحمدٍ –ﷺ– نبيًّا أن يعيشَ لحظتَه فقط على أيِّ حالٍ كانَت، ولا يُبالي بما أخذ واكتسب، أمِن حلالٍ هو أو حرامٍ، ولا ينظرُ إلى عملِه، أهو في نورٍ أو في ظَلامٍ، ودونَ أن يَنظرَ إلى عواقبِ الأمورِ والمآلاتِ.

اليومُ ينظرُ البعضُ إلى من جمعَ المالَ العظيمَ، على أنَّه رجلٌ عظيمٌ، وإلى من بلغَ المنصبَ الرَّفيعَ، على أنَّه رجلٌ رفيعٌ، وعلى من وصلَ القِمَّةَ، على أنَّه رجلٌ قِمّةٌ، وينظرونَ إلى الرَّجلِ المشهورِ، على أنَّه ناجحٌ مَشهورٌ، دونَ النَّظرِ إلى كيفَ جمعَ، وكيفَ بلغَ، وكيفَ وصلَ، وكيفَ اشتهرَ، وفيمَ اشتهرَ.

بعد هذه الصورة، صورة الغفلة والغمرة في القلوب الضالة، هؤلاءِ العَاصينَ المفرّطينَ الآمنينَ، يبرز القرآن صورة اليقظة والحذر في القلوب المؤمنة، أهلَ الإيمانِ الطائعينَ المجتهدينَ الخائفينَ، يقول –سبحانه– بعد هذه الآية: (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) [المؤمنون:57–61].

هذه الآيات الخمس جاءت بعد ذكر حال الغافلين، وهذه الآيات الخمس جمعن خمس صفات إيمانية غالية يحبها الله –تعالى–، هذه الصفات تدل على اليقظة، يقظة المؤمن، وهي –على التوالي–: الخشية التي تؤدي إلى التقوى، والإيمان بآيات الله التي هي توحيد الربوبية، وعدم الإشراك في العبادة الذي هو توحيد الألوهية، والوجل من حبوط العمل الذي مرده إلى الإخلاص، والمسارعة إلى الخيرات التي هي تسخير الوقت للعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿57﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الَّذين جَمَعوا بيْنَ الإساءةِ والأمْنِ، الَّذين يَزْعُمون أنَّ عطاءَ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا دَليلٌ على خَيرِهم وفَضْلِهم؛ ذكَرَ الَّذين جَمَعوا بيْنَ الإحسانِ والخوفِ، فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) أي: إنَّ الَّذينَ هم –لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم– حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، وطَلَبِ مَرضاتِه. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: اللهُ سُبحانَه كما جعَلَ الرَّجاءَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فكذلك جعَلَ الخَوفَ لأهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ النَّافِعَ: ما اقترَنَ به العمَلُ.

كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) [المعارج: 27-28].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿58﴾

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) أي: والَّذين همْ بآياتِ القُرآنِ وغَيرِها مِنَ الدَّلائِلِ والبَراهينِ والحُجَجِ يُؤمِنونَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: قال اللهُ تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، فإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادَتْهم إيمانًا، ويتفكَّرون أيضًا في الآياتِ القُرآنيَّةِ ويتَدبَّرونَها؛ فيَبِينُ لهم مِن مَعاني القُرآنِ وجَلالَتِه واتِّفاقِه، وعدَمِ اختلافِه وتَناقُضِه، وما يَدْعُو إليه مِن مَعرفةِ اللهِ وخَوفِه ورجائِه، وأحوالِ الجَزاءِ؛ فيَحْدُثُ لهم بذلك مِن تَفاصيلِ الإيمانِ ما لا يُعبِّرُ عنه اللِّسانُ، ويتفكَّرونَ أيضًا في الآياتِ الأُفقيَّةِ، كما في قولِه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ... [آل عمران: 190]، إلى آخِرِ الآياتِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾﴿59﴾

(وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) أي: والَّذين يُخلِصون لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكون به شَيئًا. موسوعة التفسير

قال السعدي:(وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) أي: لا شركا جليا، كاتخاذ غير الله معبودا، يدعوه ويرجوه ولا شركا خفيا، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

قال الرازي: المرادُ منه نَفْيُ الشِّركِ الخفيِّ، وهو أنْ يكونَ مخلصًا في العبادةِ لا يقدِمُ عليها إلَّا لوجهِ اللَّهِ تعالَى وطَلَبِ رِضوانِه. واللَّهُ أعلمُ).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾﴿60﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى لهمُ الإيمانَ الخالِصَ، نَفَى عنهم العُجْبَ بقولِه

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أي: والَّذين يُعطُونَ ما أعطَوا مِن زَكَواتٍ وصَدَقاتٍ وغيرِ ذلك، والحالُ أنَّ قُلوبَهم خائِفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألَّا يُتقبَّلَ منهم. موسوعة التفسير

وقال ابن عاشور: (وجملةُ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أي: يفعلون ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحةِ بقلوبِهم وجوارِحهم، وهم مُضمِرون وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أن يرجِعوا إليه فلا يجدوه راضيًا عنهم، أو لا يجدوا ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يفوقُهم في الصالحاتِ).

قال السعدي: أي: مُشفِقةٌ قُلوبُهم؛ كلُّ ذلك مِن خَشيةِ ربِّهم؛ خَوفًا أنْ يضَعَ عليهم عَدْلَه، فلا يَبْقى لهم حَسنةٌ، وسُوءَ ظَنٍّ بأنفُسِهم ألَّا يَكونوا قد قامُوا بحَقِّ اللهِ تعالى، وخَوفًا على إيمانِهم مِنَ الزَّوالِ، ومَعرِفةً

منهم بربِّهم، وما يَستحِقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ، وخَوفُهم وإشْفاقُهم يُوجِبُ لهم الكفَّ عمَّا يُوجِبُ الأمْرَ المخُوفَ مِنَ الذُّنوبِ، والتَّقصيرِ في الواجباتِ.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾﴿61﴾

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) أي: أولئك يُبادِرونَ ويُسابِقونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، ونَيلِ الدَّرَجاتِ. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ أُولَئِكَ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ رُتْبَتِهم في الفَضلِ.

(وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) أي: وهم إلى الخَيراتِ سابِقونَ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: أي: في مَيدانِ التَّسارُعِ في أفعالِ الخَيرِ، هَمُّهم ما يُقرِّبُهم إلى اللهِ، وإرادَتُهم مَصروفةٌ فيما يُنْجِي مِن عَذابِه؛ فكلُّ خَيرٍ سَمِعُوا به، أو سَنَحَتْ لهم الفُرصةُ إليه؛ انْتَهَزوه وبادَرُوه، قد نظَروا إلى أولياءِ اللهِ وأصْفيائِه، أمامَهم، ويَمْنَةً ويَسْرةً، يُسارِعون في كلِّ خَيرٍ، ويُنافِسون في الزُّلفى عندَ ربِّهم، فنافَسُوهم.

قال الشنقيطي: فيه الثَّناءُ على المبادرينَ إلى امتثالِ أوامرِ ربِّهم، وقال ابن العربي: وهذا دَليلٌ على أنَّ المبادَرةَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صلاةٍ في أوَّلِ الوقتِ، وغَيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ، هو الأفضلُ، ومدْحُ الباري أَدَلُّ دَليلٍ على صِفَةِ الفَضلِ في الممدوحِ على غَيرِه، واللهُ أعلَمُ.

صفات جميلة جليلة تزيد وتقل في الإنسان المؤمن بحسب جهده، وبحسب كمال هذه الصفات فيه يكون الارتقاء والقرب من الله، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!

الخشية في قوله –تعالى-: (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ)، هذه الخشية تزداد بزيادة الإيمان وتنخفض بانخفاضه، وتزداد مع العلم بالله –جل وعلا– وتنقص مع قلة العلم به –سبحانه–؛ وقد ربط القرآن بين العلم والخشية في قوله –تعالى-: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر:28].

أخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: "ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية". ماذا تُحدث هذه الخشية في النفس؟ تحدث الإشفاق. من خشية ربهم مشفقون.

والإشفاق هو رقة الخوف، خوف برحمة، فالذي تستحكم خشية الله في قلبه تراه مشفقا، أي: خائفا على نفسه من الانتكاس أو الفتور، نسأل الله السلامة والعافية، راحما إياها، ومشفقا على عمله من شوائب الشرك والرياء، ومشفقا على وقته من الضياع، وهكذا هو في جميع شأنه، فهو دائم المتابعة لقلبه ولعمله ولوقته، يستمتع بنور الإيمان، وبطمأنينة في قلبه جعلها الله –عز وجل– راكزة فيه، مع ملاحظته لذلك النور الذي لا تجتاحه الظلمة، هذا هو المشفق.

كان الحَسَنُ يَقولُ: (إنَّ المؤْمِنَ جَمَع إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافِقَ جَمَع إساءةً وأمْنًا).

قال ابن القيم رحمه الله: «من تأمل أحوال الصحابة – رضي الله عنهم – وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن، فهذا الصديق – رضي الله عنه – يقول: "وددتُ أني شعرة في جنب عبد مؤمن"، ذكره أحمد عنه. وذكر عنه أيضا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: "هذا الذي أوردني الموارد"، وكان يبكي كثيرا، ويقول: "ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا". وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عودٌ من خشية الله عز وجل. وأتي بطائر فقلبه ثم قال: "ما صيد من صيد، ولا قطعت شجرة من شجرة، إلا بما ضيعت من التسبيح"، فلما احتضر، قال لعائشة: يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد...» الداء والدواء لابن القيم (ص93).

روي عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: "ليس بغافل ولا ذاكر للموت من عدَّ غدا من أجَلِه، فربَّ مُستَقبِلٍ يوماً لا يستكْمِلُه، ومُؤملٍ غداً لا يبلغه، لو أبصرتم الأجلَ ومُرورَه، لأبغضتم الأملَ وغرورَه".

ولذلكَ من كانَ خائفاً من اللهِ –تعالى– في الدُّنيا، جازاهُ اللهُ بالأمنِ التَّامِ يومَ القيامةِ، كما قَالَ –ﷺ–: "يَقُولُ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

ولذلك يتذكر أهل الجنة –جعلنا الله وإياكن من أهلها– يتذكرون هذا الإشفاق وهم في الجنة، (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) [الطور:25-28]، يحمدون الله على ذلك الإشفاق الذي أورثهم به الجنة، ويحمدونه على زوال الخوف في الجنة: (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، نسأل الله من فضله!

ثم تأتي الصفة الثانية: (وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)، أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية وأنه ربها وخالقها، فهذا هو توحيد الربوبية، فلا يجري شيء في الكون إلا بأمره وعلمه، وأمره –سبحانه– محفوف بكمال العدل والحكمة، قال –تعالى–: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) [الرعد:2].

الصفة الثالثة: قوله –تعالى–: (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون:59]، توحيد الألوهية، إنا إذا آمنا بآياته –سبحانه– وآمنا بأنه قد تفرد بالخلق والرعاية والرزق والتوفيق والتمكين والنصر، وآمنا بأنه قد تفرد بملك الدنيا والآخرة؛ فهل من العدل بعد هذا أن نعبد غيره؟ وهل من العدل بعد هذا أن نشرك معه غيره في العبادة فندعو غيره؟ ونستغيث بغيره؟ ونطلب الرزق من غيره؟ ونطلب التوفيق من غيره؟ ونطلب من

غيره ما لا يقدر عليه إلا هو -سبحانه-؟ بالتأكيد لا؛ بل هو من الظلم، ولذلك سمي الشرك ظلما عظيما، قال -تعالى-: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13].

⇦ولكن الله -تعالى- كمل في حلمه وصبره، ولولا هذا الكمال لهلكنا جميعا، يقول -سبحانه-: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) [فاطر:45]، وفي حديث أبي موسى في صحيح مسلم يقول -صلى الله عليه وسلم-: "لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ! إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ!". إذاً؛ فالشرك بعيد عن صفات اليقظة.

▤بعد الخشية والتقوى ورعاية توحيد الربوبية والإلوهية تأتي الصفة الرابعة التي هي في قوله -تعالى-: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) [المؤمنون:60]، وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ، والوجل هو مقدمة الخوف، فَإِذَا عَمِلَ الْمَرْءُ عَمَلًا مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَوَفَّقَهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَيْهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطَالِعَ الْمِنَّةَ عَلَيْهِ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- قَدْ وَفَّقَهُ إِلَيْهِ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَوَجَّهَ قَلْبَهُ إِلَى فِعْلِهِ؛ مَا قَوِيَ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِهِ، وَلَا أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِهِ.

▤فَحِينَئِذٍ يَنْظُرُ مُطَالِعًا إِلَى الْمِنَّةِ -مِنَّةِ الْمَنَّانِ الْعَلِيمِ-، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى قُصُورِ النَّفْسِ، وَيَنْظُرُ إِلَى حَالِهَا فِي تَرَدِّيهَا؛ فَحِينَئِذٍ يُطَالِعُ تَقْصِيرَ النَّفْسِ مَعَ مُشَاهَدَةِ الْمِنَّةِ.

▤فَإِذَا عَمِلَ عَمَلًا مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ؛ فَيَنْبَغِي عَلَيهِ أَنْ يَكُونَ مُشْفِقًا مِنْ أَلَّا يَقْبَلَهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنْهُ، تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- سألتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عن هذِهِ الآيةِ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ قالت عائشةُ : أَهُمُ الَّذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرِقونَ قالَ لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ ، ولَكِنَّهمُ الَّذينَ يصومونَ ويصلُّونَ ويتصدَّقونَ ، وَهُم يخافونَ أن لا تُقبَلَ منهُم أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ" صحيح الترمذي.

▤وَأَمَّا إِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً: فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا دَائِمًا كَأَنَّمَا هِيَ جَبَلٌ يَهُمُّ أَنْ يَقَعَ عَلَيهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَصْغَرَ السَّيِّئَةَ وَالذَّنْبَ؛ فَهَذَا دَلَالَةٌ عَلَى النِّفَاقِ فِي الْقَلْبِ، قال عبدُ اللهِ ابنُ مسعودٍ: "إنَّ المؤمنَ يرَى ذنوبَه كأنه في أصلِ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه وإنَّ الفاجرَ يرَى ذنوبَه كذبابٍ وقع على أنفِه قال به هكذا، فطار".

▤وَاللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ عَمَلُ عَامِلٍ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَنْصِبُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَى بِهَا اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَكَفَى بِهِ حَاسِبًا.

الصفة الخامسة والأخيرة في الآيات قوله -تعالى-: (أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) [المؤمنون:61]، إنهم يسارعون إلى ما أمرهم الله بالمسارعة إليه، كما قال سبحانه: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ). فلأنهم يتعثرون في السباق وترهقهم الذنوب فهم يسارعون إلى أن يغفر الله لهم ذنوبهم، فبمجرد سقوطهم وتعثرهم يسرعون إلى الأوبة والتوبة، ويقومون

إلى السباق كأن لم يتعثروا من قبل. إنهم يرون بأم أعينهم عاقبة ذنوبهم حين تحرمهم الطاعة، وتجلب لهم المصائب، وتغرقهم في الهموم والغموم في الدنيا، وتعرضهم للعذاب في الآخرة، فيسارعون إلى مغفرة الله ليخفف عنهم الأحمال، ويرفع عنهم الأثقال، فتصفو قلوبهم، وتطهر نفوسهم.

ويسارعون إلى جنة عرضها السماوات والأرض، يسارعون إلى ذلك المكان ليسمعوا ذلك النداء (إنَّ لَكُمْ أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبَدًا فَذلكَ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ: {وَنُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}).

فالسابق في هذه الدنيا بالأعمال الصالحة سابق إلى جنات النعيم، السابق في الأعمال الصالحة في الامتثال لأمر لله والامتثال لأمر رسوله -ﷺ- سابق يوم القيامة إلى جنات النعيم.

ولما حث النبي -ﷺ- في غزوة تبوك على الإنفاق في سبيل الله، يقول عمر: "قلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فأحضرت نصف مالي وقد كان عندي مال في ذلك الوقت، قال: ثم حضر أبو بكر وأحضر ماله كله، فقال النبي -ﷺ- لعمر: "ماذا أبقيت لأهلك؟" قال: أبقيت مثله، وقال لأبي بكر: "ما أبقيت لأهلك؟" قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قال عمر: "لا أسبقك إلى شيء أبدا". وقام عثمان وأحضر مائة من الإبل، قال: يا رسول الله علي مائة ناقة، ثم حث النبي -ﷺ- على النفقة، قال عثمان: علي مائتان يا رسول الله، فحث النبي -ﷺ- في المرة الثالثة فقال عثمان: علي ثلاث مائة، ثم قال النبي -ﷺ-: "اللهم إني راض عن عثمان فارض عنه" ولم يكتف بهذا، بل قام مسرعا وذهب إلى بيته وجاء بألف دينار ووضعه في حجر النبي -ﷺ-، فقال نبينا -ﷺ-: "ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم".

عندهم ثقة بالله، عندهم أمل في الله، تعلقت قلوبهم بالله، تعلقت قلوبهم بخالقهم، همتهم عالية، همتهم أن يسكنوا مع رسول الله -ﷺ- في جنات النعيم، أن يروا ربهم ويعرفون حقارة الدنيا وأنها قصيرة، فعلى المسلم أن يجتهد في المسابقة في الخيرات وينافس ويسابق.

سابقي إخوانك في بر والديك، لا يسبقك أحد في بر والديك، سابقي في المحافظة على الصلاة في أوقاتها، سابقي في الانفاق، والاطعام، والذكر.... خيرات كثيرة ليكن شعارك لن يسبقني إلى الله أحد.

واحذري ممن يسوف وممن يخذلونك ويأمرونك بالتريث في الأعمال الخيرية، فالعمر قصير، يقول حبيبنا وقدوتنا وأسوتنا -ﷺ-: "ما أنا والدنيا إلا كرجل استظل تحت شجرة ثم ذهب وتركها".

والمسارعة في الخيرات دليل على الإيمان، دليل على قوة اليقين بالرحمن، فإذا أنفق المسلم عنده من اليقين أن الله يضاعف له الأجر والمثوبة في الدنيا ويعوضه في الدنيا والآخرة: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سبأ: 39].

والمسابقة في الخيرات دليل على محبة الله لعبده، فإذا أحب الله عبدا شرح صدره ووفقه وأعانه على فعل الخيرات.

استشعار الرجوع إلى الله في قوله: (أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) هو دليل يقظة القلب، فالقلب اليقظ هو الذي يحسب حساب الآخرة فيرى الرجوع إلى الله حاضرا حيا في ضميره، فهو لا ينسى قوله -تعالى-: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)، ولا ينسى قوله -تعالى-: (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [البقرة:281].

يا ابن آدم: بادر إلى حسن العمل، بينما أنت في فسحة ومهل، وتُب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزلل، قبل أن يقال: فلان مات، فتكون رهين عملك، وسجين ذنوبك.

يا عبد، يا مسكين: أنفقت مالك في بنيان الدور، وتشييد القصور، ونسيت الموت والتحول إلى ظلمة القبور، ثاوياً فيها إلى يوم النشور.

إذا جاءك الموت لا ينفعك ما جمعته ولا ينجيك ما اكتسبته، فامهد لنفسك قبل مفارقة الأحباب والجيران، والخروج من الديار إلى منازل الدود، وبيت الوحدة، إلا أن يعفو الملك الوهاب، فتفكروا يا أولي الألباب.

أما صاحب القلب الغافل المغمور فهو الذي لا يبالي بتبعات عمله وليس في باله الرجوع إلى الله، اللهم إلا بشكل سطحي معرفي، أما حضور ذلك في قلبه فلا!.

وحين تتأملي في مضمار السباق، تجدي أن القوم لا يتسابقون بأقدامهم، ولا بمراكبهم، وإنما يتسابقون بقلوبهم، فهي التي تقود أرواحهم وأجسادهم إلى رضوان الله، يتجهون إلى الله حبا ورغبا ورهبا، زينتهم الإخلاص، وزادهم التقوى.

قال يحي بن معاذ: "مَفَاوِزُ الدنيا تُقْطَعُ بِالْأَقْدَامِ، وَمَفَاوِزُ الآخرة تُقْطَعُ بِالقلوب".

في مضمار سباق القلوب لن تستغربي أن تجدي متسابقَين اثنين وصلوا إلى نفس المنزلة، أحدهما جاهد في سبيل الله، وواجه المخاوف، وتعرض للأخطار حتى كتبت له الشهادة. والآخر مات على فراشه بين أهله وأحبابه وأمواله. وذلك لأن كلاهما سابق بقلبه إلى الله، قال -ﷺ-: (مَن سَأَلَ اللَّهَ الشَّهادَةَ بصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وإنْ ماتَ علَى فِراشِهِ).

من توفرت فيهم تلك الصفات العزيزة المبادرة والمسارعة، فوقتهم أثمن من أن يضيع معظمه في لهو ولعب، فلا كسل عن الطاعة في حياتهم، ولا انتظار للخير أن يأتيهم وهو قاعدون، لا، بل هم الذين يبحثون عنه ويتطلعون إليه، فتراهم في طليعة من يسارع إلى الأعمال الصالحة بأنواعها؛ ومن ثم سبقت لهم من الله سابقة السعادة، نسأل الله أن نكون من السعداء.